Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كونجريف (طريق العال) هي بطريقة ما أكثر نضجاً من أية مسرحية لشكسبير، ولكن من هذه الناحية فقط، وهي أنها تعكس مجتمعاً أكثر نضجاً ــ وهذا يعني أنها تعكس نضجاً أعظم في السلوك. فقد كان المجتمع الذي كان كونجريف يكتب له، من وجهة نظرنا، جافي الطبع فظاً إلى حد بعيد: ومع ذلك فهو أقرب إلى مجتمعنا من مجتمع أسرة تيودور: وربما كنا نحكم عليه حكماً أشد قسوة لذلك السبب، ومع ذلك فقد كان مجتمعاً أكثر صقلاً وأقل ريفيّةً: كان فكره أكثر ضحالة، وكان إحساسه محدوداً بصورة أكبر، وكان قد فقد بعض بشائر النضج ولكنه حقق بشائر أخرىٰ. وهكذا يجب أن نضيف إلى نضج الفكر نضج السلوك.

وأعتقد أن التقدم نحو النضج في اللغة أمر يمكن تبيُّنه بسهولة أكبر، والإقرار به دونما أخذ ورد، بدرجة أكبر في تطوّر النثر منها في تطوّر الشعر. ففي دراسة النثر نكون أقلّ انشغالاً بالفروق الفردية في العظمة، ونكون أكثر ميلاً إلى المطالبة بالاقتراب من مقياس مشترك ومفردات مشتركة وبنية للجملة مشتركة. والغالب في الحقيقة أن النثر هو الأكثر انحرافاً عن هذه المقاييس المشتركة التي هي فردية إلى أبعد الحدود، حتىٰ إننا نميل إلى تسميته «النثر الشعري». ففي وقت كانت فيه انكلترا قد حققت المعجزات في الشعر، كان نثرها غير ناضج نسبياً، كان متطوّراً بما يكفي لأغراض معينة ولكنه لا يكفي للأغراض الأخرىٰ. وفي ذلك الوقت ذاته، عندما كانت اللغة الفرنسية قد أعطت قليلاً من البشائر في مجال الشعر تماثل في العظمة ما أعطته الانكليزية، كان النثر الفرنسي أكثر نضجاً إلى حد بعيد من النثر الانكليزي. وما عليك إلاّ أن تقارن أيّاً من الكتّاب في عصر أسرة تيودور بمونتاني ــ على أن مونتاني نفسه، من حيث كونه أسلوبيّاً لم يكن إلاّ ممّهداً، ولم يكن أسلوبه ناضجاً بالدرجة الكافية لإشباع المتطلّبات الفرنسية من أجل الكلاسيكي. وكان نثرنا على أهبة الاستعداد لبعض المهام قبل أن يستطيع الوقوف مع نثر اللغات الأخرىٰ جنباً إلى جنب. لقد كان من الممكن أن يأتي كاتب مثل مالوري قبل كاتب مثل هوكر بزمن بعيد، ومثل هوكر قبل مثل هوبز، ومثل هوبز قبل مثل أديسون.